

بعض المفاهيم العامة

لفن ما قبل التاريخ

د. قلماوي عمر

- نشأة الفن والنحت:

المنطلق الرئيسي الذي انبثق عنه فن الرسم والنحت لدى الانسان حقيقة علمية مسلم بها. فانه من المحتمل جداً أن الصدفة لعبت دوراً فعالاً في اعطاء الانسان فكرة النحت والرسم. ومن ذلك مثلاً أنه كان قد لاحظ بصورة عفوية انطباع أقدامه على أرضية الكهف الترابية أو الطينية، أو أنه أيضاً شاهد بصمات كفه الملونة بدم الحيوان الذي اصطاده مما جلب نظره وانتباهه الى مزاوله هذا الحدث وتكراره مرات عديدة وبالتالي تعمد غمس يده.

- مفهوم الفن في ما قبل التاريخ:

إن دراسة فن ما قبل التاريخ تعتمد بالدرجة الأولى على مكتشفات الفن في المغارات والكهوف القديمة التي وجدت بالعالم كله وبالتالي تعتمد على دراسة واقع القبائل المختلفة. كما أنه يجب أن نذكر بأن الفن كضرورة حتمية رافق في بدايته الذين ذلك أن البحث عن المطلق والمجهول والخوف من قوى السحر والشر والشؤال عن المصير كلها من العناصر التي تجعل الانسان يشعر بوجوده.

وكجواب على هذه الانفعالات كان لابد على السحر والأسطورة والدين من يتحلّ مكانها في عقيدة الانسان القديم منذ آلاف السنين. وكان لابد للفن والتصوير والنقش أن يدعم تلك العقيدة الراسخة في ضمير الانسان القديم. وميل الفن القديم نحو الطبيعة هو دليل على أن الفن القديم لم يكن وسيلة السحر والاستقرار فحسب بل كان وسيلة لابرار المواهب وتخليد الانسان. وعالم الانسان القديم كان منحصر في المغارات التي يسكنها والحيوانات التي يصارعها محاولاً تذليلها والسيطرة عليها. كانت الموضوعات التي رسمها لنا لم يخرج عن نطاق شاهد الصيد. لقد برزت شخصية الفنان القديم في رسومه بشكل واقعي وذلك لأنه استلهم المواضيع التي رسمها في المحيط الذي يعيشه يومياً.

مظاهر الفن القديم: من أهمها:

- الميل الى الواقعية بحيث كانت للحيوانات التي ترسم تظهر بدقة متناهية:
- الميل الى التقشف في استعمال الألوان، ولذلك كانت جميع الرسوم التي قدمها لنا على جدران الكهوف تظهر بسيطة في مظهر العام.
- تجنب الدخول في التفاصيل.
- قدرة تضفي على رسومة حركة خاصة تبعث على محاكات الطبيعة.
- اختلاف المواضيع أو تنوعها.

موضوعات النحت والرسم:

- مرّ الانسان بخطوات تدريجية في التطور والنضج من ناحيتي الأسلوب والموضوع وفقا لتطوره العقلي والحضاري. ثم هناك جانب الخبرة والتجربة التي كانت عبارة عن خلاصة الأعمال اليومية. ويمكن القول بأن الانسان القديم كان متفاعلا الى حد بعيد مع البيئة والمحيط. يتسني هذا من خلال حياته اليومية (الاقتصادية والاجتماعية). ومن بين الموضوعات التي قام بها:
- أشكالاً حيوانية من فصائل مختلفة رسمت بدقة (ضبط النسب في أجزاء الجسم الحيواني والدقة في إظهارها).
- أشكالاً بشرية (رسما ونحتا) - رسم اليد اليسرى.
- أشكالاً هندسية (الخطوط المستقيمة والمتعرجة متقاطعة أو غير متقاطعة).
- أشكالاً زخرفية غير منتظمة.
- رسوم ميتولوجية (السحر والشعور بالدين).
- رسم الأسلوب الطبيعي.

مواد الرسم والنحت:

وهي الخامات الأساسية التي استعملها الانسان في صناعته الفنية وكذا الآلات والأدوات التي صنعها واستخدمها في تنفيذ انتاجه الفني كالرسم والنحت.

وكان استعمال الآلات والأدوات التي عثر عليها في أقطار مختلفة من العالم تكاد تكون متشابهة في أشكالها ومحدودة في نوعها وهي ما جادت به الطبيعة على الانسان.

ويمكننا أن نحدد الخامات والأدوات الرئيسية التي استخدمها الانسان في الرسم والنحت بمواد ثابتة ومنقولة وأخرى مستحضرة.

1- المواد الثابتة: وهي:

* جدران الكهوف وسقفها.

* المقابر والمساحات المسطحة.

* الصخور العارية في الهواء الطلق وعلى جوانبها العمودية.

* جدران الدهايز العميقة.

* جدران الملاجئ الصخرية.

وتعتبر المواد الثابتة كأحسن ورق رسم عليه الفنان القديم (العصر الحجري القديم الأعلى). كما أن نفس الصخور التي استعملها أيضا كسطوح جيدة للنحت بأنواعها (كهوف فرنسا واسبانيا).

2) المواد المنقولة: وهي:

* عظام الحيوانات وأنيابها والقرون مثل: الأبقار الوحشية والوعل والفيلة، والماموت.

فقد اتخذ عظام بعضها وأنياب البعض الآخر مادة جيدة نحت وحفر عليها أشكال عدة حيوانات ثم صور إنسانية.

* يضاف الى ذلك الحجارة الصغيرة وقشور بيض النعام (شمال افريقيا مزينة برسم هندسية.

3- المواد المستحضرة:

أهمها جدران الكهوف وواجهات الصخور التي لازالت تحتفظ بلوحات ملونة رسمها الانسان رغم أن استعمال ألوان الصباغة كان محدودا.

أما طريقة صنعها وتحضيرها يبينان لنا جانبا من التفكير الصناعي الذي قد بلغه الانسان. كما كان على قدر كبير من المعرفة لتسيير الخامات الأساسية لكل لون من الألوان. ويعود اكتساب تلك المعرفة نتيجة لتجارب واختيارات عديدة. فقد مارس في البداية لوحات بالألوان القائمة (اللون الأسود والأحمر)، أما في المرحلة الثانية نجد يمزج بين الألوان (اللون البني والأحمر والأسود).

أما المواد الأولية الخام لتحضير تلك الأصباغ فكان من أهمها بالنسبة للصبغة الحمراء خامات الحديد، معادن طبيعية أخرى ثم المغرة OCRE. فهذا الأخير قدم اللون الأصفر، والأحمر والأسمر، أما أكسيد المنغنيز الأسود والكستناء. كما نجد كذلك الكاولين (اللون الأبيض) والليمونيت والهيمايت (برتقالي وأحمر)، والفحم (الأسود).

أما فيما يتعلق بالأدوات والآلات التي استعملها الإنسان نجد في انجاز رسومه كأداة أصابع اليد وجلود الحيوانات وربما ريش الطيور.

أما في مجال النحت فقد استعمل الحجارة والعظام والأزاميل والعاج.

التقسيمات الفنية الكبرى في العصر الحجري القديم:

لم يعرف الفن عند النياندرتاليين (العصر الحجري القديم الأوسط)، بل ظهر مع الإنسان العاقل (Homo- Sapiens. S) في بداية الفورم (Würm).

لقد تمت عدة نشاطات علمية في هذا الميدان لمعرفة فن العصر الحجري القديم. ويفضل المقارنة مع المعطيات الاثنولوجية الحالية، ثم التوصل الى تدقيق وتفسير بعض الموضوعات ولو أنها خيالية في بعض الأحيان.

أما أبحاث العالمين A. Leroi- Gourhan, A. Laming- Em peraire قد أعطت نفس جديد لفن ما قبل التاريخ بحيث استطاعا أن يستخرج من هذا الابداع الفني عدة مميزات، ثم جعل تحليلات دقيقة مع التركيز على التفسيرات لمجمل هذه الصور الجدارية التي تم العثور عليها الى حد الآن.

ثم أنه لم يتم تصميم وتقسيم هذه الانجازات الفنية عن طريق الصدفة بل يرتبطان بتسلسل فكري متعمد. فنن ما قبل التاريخ يمثل اذا وحدة كبيرة تطور من الطابع التجريدي الى الواقعية. ويفضل العالم A. Leroi- Gourhan نستطيع أن نميز عدة مراحل متتالية ضمن تطور النشاطات الفنية لفترة ما قبل التاريخ.

1- مرحلة ما قبل الرمزية Préfigurative التي تبدأ مع الإنسان المستيري المتطور بحيث كان يستعمل المغرة Ocre بمختلف ألوانه، ثم تواصل أو استمر حتى العصر الحجري القديم الأعلى أين استطاع انجاز أول مظاهر للزينة. كما مارس كذلك الحز الانتظامي على العظام.

2- مرحلة أولية Primitive التي تنقسم إلى فترتين:

أولاً: أسلوب I: 22 ألف سنة ق/م، تمثل هذه الفترة بعض الصفحات الحجرية المنقوشة، رموز الجنس الاناث، ثم نوع من الرسم التمهيدي للمظاهر الجانبية للحيوانات (مثل الماموث والحصان).
ثانياً: أسلوب II: من 22 الى 17 ألف سنة ق/م، هنا تم التعرف على الحيوانات بشكل واضح وكان ذلك بواسطة تدقيق التفاصيل، من بينها: الأذن، القرون، الذيل أو الذنب الأنياب والشعر. هذا الى جانب المظهر النسوي الذي أعطاه (الرسم) أسلوباً خاصاً حتى أنه بالغ في بعض أطراف الجسم.

3- مرحلة قديمة Archaïque

أسلوب III : من 17 الى 13 ألف سنة ق/م، نلاحظ انتهاء السيطرة التامة والوضوح من ناحية الرسم والنحت. كما تمتاز هذه المرحلة بأن أحجام ولون ثياب الحيوانات وكذا تغيرات مختلفة لأعطاء الجسم قد تمت بشكل رائع ومناسب.

4- مرحلة كلاسيكية Classique

أسلوب IV (قديم): تمثل ذروة فنّ ما قبل التاريخ (العصر الحجري القديم الأعلى). هناك نسب الأشكال المدققة وتفاصيل شعر الحيوانات. كلاهما أعطى صورة للغاية للفن الواقعي.
أمّا النحت فقد وصل، هو الآخر، الى درجة كبيرة من الاتقان.

5- مرحلة متأخرة: Tardive

أسلوب IV (حديث): تمثل نهاية الزخرفة أو التزيين الجداري والفن المنقول Mobilier الواقعي الدقيق الذي سوف يتطور فجأة ليعطي مظهر تصميمي أو صوري Schématisation.
ثم أخيراً، سمح ، عن طريق التحليل الموضوعي لتقسيم الأشكال والرموز بملاحظة وجود بالكهوف تقارب ما بين مختلف الحيوانات وكذا الجنسين الذكر والانثى.

طرق الانجاز الفني:

- أساليب عديدة ومختلفة في انجاز الأعمال الفنية
- لم تتم مقاسات الحيوانات حسب شكلها الأصلي والنوعي.
- وجود نوع من التطابق في النقش بشكل متكرر.
- عزل الرسومات والنقوش عن بعضها البعض دون جعل العلاقة التي تربطهم.

عرض الحركة:

نلاحظ في بعض الأحيان الفنون التي قدمها انسان ما قبل التاريخ أنه أراد أن يبرز الأسلوب الحركي بكثرة على ما كان عليه في السابق (نفس الفترة)، ففي النقوش والرسوم القديمة تبدو الحركة أنها تتجلى من خلال وضعية الأرجل، انحناء الجسم أو الرأس.

الفن بالمغرب العربي:

يمكن تقسيم فن النقش والرسم بشمال افريقيا الى 3 مناطق جغرافية كبيرة:

- 1) المغرب العربي الذي يحتوي على الجزائر، تونس والمغرب الأقصى، مع الذكر أن الوجود الكبير من النقوش متجمع أو متمركز في الجزء الجنوبي من الأطلس الكبير فالجنوب الوهراني.
- 2) الصحراء بمواقعها الجبلية: الهقار، الطاسيلي، التبتستي، اينيزي، بوكوفزان.
- 3) منطقة ليبيا ومصر.

في شمال افريقيا والصحراء.

- من ناحية الأسلوب، يلاحظ نوع من التشابه مع الفن الاسباني وكذا نقوش جنوب ايطاليا.
- يتمركز الرسم والنقش في غالب الأحيان على ضفاف الصخور المتواجدة على الهواء الطلق، بالركام من الحجارة المتراصة، بالصخور العالية ونادرا بالملاجئ الصخرية.
- صعوبة تأريخ هذه الفنون نظرا لنقص في الدراسة العلمية وضبط العلاقات ما بين الثقافات الآثرية والأساليب الفنية.
- المواضيع: الحيوانات (فيلة، زرافة، وحيد القرن...) وخاصة التي انقرضت (الجاموس ذو القرون الكبيرة Buffle).

- يعكس هذا الفن المناخ الذي كان يسود المنطقة من قبل: السافانا Savane.

- نماذج من حيوانات مستأنسة صغيرة السن (بقر، خرفان، عنزة، كلاب...).

- أكثر حداثة في ميدان النقش والرسم بالنسبة للأحصنة.

- صور إنسانية.

- وجود مناظر تمثل معارك الحيوانات (نسبة قليلة).

- نماذج لها علاقة بممارسة الصيد.

- غياب في فنّ شمال افريقيا المناظر المعقدة.

- أسلوب طبيعي يطنى على كلّ هذه الأعمال الفنية.

- إنتماء هذا الفنّ الى حضارة العصر الحجري القديم المتأخر Epipaléolithique و الحديث- Néolithique

* في ليبيا ومصر:

- تبدو أنّ النقوش توجد بكثرة اذا ماقورنت بالرسوم.

- مركزها: الأكسور Louksour والنيل، الصحاري النوبية والليبية.

- تتمركز الرسوم خاصة في المواقع الصحراوية الليبية.

- أمّا تنفيذ تقنية النقوش فلها علاقة وطيدة مع بعض المناطق بشمال افريقيا.

- تمت الانجازات القديمة بواسطة أدوات حجرية (مقطع على شكل U).

- أمّا المقاطع العمودية من النقوش الحديثة فقد استعملت بأدوات حديدية وشكلها يشبه حرف V:

- أسلوب فنّي طبيعي.

- في النيل توجد مواضيع تمثل سفن بدون بحارة والأخرى تحمل مقاذيف.

بعض التوجيهات البليوغرافيا

poche* BRIARD (J.); TETRY (A.) et VIEL (R.) ; 1977.- La préhistoire, Encyclo larousse, Paris.

Par- * CHAINE (J); 1985- Histoire de L'Homme et des climats au quaternaire. is Doin 366P., 108 Fig, 14 tabl

hommes. * GOULETQUER (P.) et RANZI (C.); 1984.- Le Livre des premiers Découverte Cadet.

Gallimard. Italie.

* GUELMAOUI (A.); 1982- 1986.- Notes prises aux cours (D.E. A et Semi-Bel- naires de Doctorat: I.P.H, Sorbonne, Nanterre et C.N.R. S de " Meudon levue).

Edi- * JELINEK (J.); 1979. - Encyclopédie illustrée de l'homme préhistorique. tion GRUND, Paris.

* Art et civilisation des chasseurs de la préhistoire 3400- 8000 ans av. J.C. lab. de préhistoire du Mus. de l'homme et Mus. des antiq. Nat de s=t Germain- en laye. 1984, Paire.